إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ش/كانون الأول ٢٠١١م

بدر شاكر السياب وأسطورة تموز بين الأساطير

يوسف هادى بور نهزمى*
نيكتا صميمى**

الملخص

قد استخدم بعض الشعراء المعاصرين الأساطير عامة، وتموز الأسطورة البابلية خاصّة فى قصائدهم تعبيراً عن الانتعاش والحياة بحيث سموا بالشعراء التمّوزيين. وفى صدر هذه القائمة، بدر شاكر السياب الشاعر العراقى المعاصر الذى استخدم الأساطيرَ رموزاً فى أشعاره بصورة لم يستخدمها شاعر آخر. يشير بدر بعض الأحيان إلى الرموز مباشرة، وحيناً آخر يرمز إلى بعض خصائصها كمقدمة للولوج إلى صلب الموضوع، ثم يذكر اسمها بصراحة ووضوح. وأمّا الشىء الذى يجب أن لاننساه أبداً فهو أنّ السياب كان ناشطاً سياسياً يحاول لأجل الثورة وكان قلمه سلاحه فكان يختار أساطير تساعده على بيان أفكاره وآرائه لمواصلة الكفاح السياسى. وكانت أسطورة تموز من الأساطير التى تذكرّه دائماً الثورة وتطور الأوضاع السياسية وتوحى إليه الفناء لطلوع أيام بيضاء.

الكلمات الدليلية: بدر شاكر السياب، الأسطورة، الرمز، تمّوز، أدونيس.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى كرج- أستاذ مساعد.
**. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فى كرج.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.مهدى ناصرى
Hadi1339@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/٢٧هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/١٤هـ. ش

المقدمة

«ولد بدر شاكر السياب قرب البصرة فى قرية جيكور سنة ١٩٢٦م ونشأ يتيماً بسبب وفاة أمه[1]. فكان يبحث فى وجوه النساء عن ملامح وجه أمّه. فلم تقع عيناه إلا على بسمات توحى بالرّياء واللامبالاة والنفور ولم تستطع جدّته لِأبيه تعويض الحرمان الذى كان يعانيه على الرغم من الحنان والحب اللذين غمرته بهما. من هنا سيبقى بدر شاكر السياب مشدوداً إلى أمّه بعد ولادته وستظل حية فى ذاكرته على الرغم من رحيلها المبكّر.» (بطرس، لاتا: ١٤ و١٥) يستفيد السياب من الكلمات التى تعبّر عن أمّه الغائبة حيث يقول:

«كأنّ طفلاً بات يهذى قبل أن ينام
بأنَّ أمّه– الّتى أفَاقَ مُنذ عام
فَلَم يجِدها، ثمّ حينَ لَجَّ فى السؤال
قالوا له: بعد غدٍ تعود ...
لابُدّ أن تعود.»

(شاكر السياب، ٢٠٠٠م، ج١: ٤٧٥ و٤٧٦)

«طلب الشاعر المرأة لما بدأ يتفتح على الحياة، فحلم بها فى اليقظة والمنام ثم جاء بدر بغداد ليكمل دراسته. ولكن بسبب انتمائه إلى الحزب الشيوعى، تحولّت حياته إلى سلسلة من الصراعات مع السلطة. ففصل من عمله غير مرّة وتسكّع فقيراً فى الشوارع، يطوى القلب على جرحين: جرح الفقر وجرح الهوى. ثم جاء بيروت بقصد الاستشفاء، فدخل الجامعة الأميركية فى ١٨ نيسان ١٩٦٢م وكانت فكرة الموت تلحّ عليه وأشار التشخيص إلى مرض فسادىّ فى الجهاز العصبى وإلى تصلّب جانبى ضمورى فلم يعط أدوية.» (بطرس، لاتا: ٤٣) كانت المرحلة الأخيرة من حياة بدر مرحلة الفقر والحزن حيث خيّم عليه شبحُ الموت فأخذ ينظر إلى كلّ شى من خلاله حتى توفّى سنة ١٩٦٤م.

---

١. كان فى السادسة من عمره عندما ماتت أمّه سنة ١٩٣٢م.

حياته الأدبية

نستطيع أن نميّز أربع مراحل فى حياة بدر وفى شعره:

«١. الأولى: الرومانسية ١٩٤٣م- ١٩٤٨م.

٢. الثانية: الواقعية ١٩٤٩م – ١٩٥٥م.

٣. الثالثة: التموزية أو الواقعية الجديدة ١٩٥٦م- ١٩٦٠م.

٤. الرابعة: الذاتية ١٩٦١م-١٩٦٤م.» (علوش، ٢٠٠٠م: ت-ض)

بدر الرومانسى

أخذ بدر فى هذه المرحلة يعشق النساء وأحبّ نساء كثيرات بدلاً عن عشق أمه المفقود. كما يقول:

«سأروى على مَسمعيكِ الغداة   أحاديثَ سمَّيتُهنّ الهَوَى
وأنباءَ قلبٍ غريق السراب   شقى التدانى، كئيب النوى
أصيخى.... فهذى فتاة الحقول   وهذا غرام هناك انطوى
أتدرين عن ربّة الراعيات؟   عن الريفِ؟ عمّا يكونُ الجَوَى؟»

ثمّ يواصل كلامه ويقول:

«أشاهدت يا غابُ رقصَ الضياء   على قطرةٍ بينَ أهدابها؟
ترى أهى تبكى بدمع السماء   أساها وأحزان أترابها؟
ولكنّها كلّ نَور الحُقول   ودَفءِ الشذى بين أعشابها
وأفراح كل العصافير فيها   وكل الفراشات فى غابها»

(شاكرالسيّاب، ٢٠٠٠م، ج١: ١٤ و١٥)

بدر الواقعى

فى هذه المرحلة من حياته تحول إحساسه الفردى بالفاجعة إلى إحساس بفاجعة الجماعة مؤقتا كان الموت فيما مضى، موته موت أمه فقط، أما الآن فقد أصبح الموت

عامة موت الآخرين. نستطع أن نبيّن موقفه هذا من خلال قصائده: فجر السّلام، حفاّر القبور، الأسلحة والأطفال. يشير بدر شاكر السياب فی کل من هذه القصائد على اختلافها إلى أنّ مصير الإنسان ليس مصيراً فردياً منعزلاً، بَل إنه جزء من المجتمع والتاريخ. حيث يقول:

« واخيبتاه! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟
والطيبات: من الرَّغيف، إلى النساء، إلى البنين
هی منّة الموتى، عليّ. فكيف أشفِق بالأنام؟
فلتمطرَنّهم القذائفُ بالحديد وبالضّرام
وبما تشاء مِن انتقام:
مِن حُمياتٍ أو جذام
(المصدرنفسه: ٥٥٠)

بدر التموّزی

كان بدر يميل فی هذه المرحلة من حياته إلى استخدام الأساطير والاستفادة من الرموز فی أشعاره، وكان يريد انتقال ما فی ذهنه فی قالب أسطوری أو قالب رمزی إلى ذهن القارئ إلى حدّ ما اتصل بالشعراء التموزيين. لم يستعمل شاعر عربی الأسطورة والرمز كما استعملها بدر. حيث يقول فی إحدى قصائده:

«تموّز هذا، أتيس[١]
هذا، وهذا الربيع
يا خُبزنا يا أتيس،
أنبت لَنا الحبّ وأحی اليبيس.»
(المصدرنفسه: ٤٣٤)

١. أتيس يقابل تمّوز الإله البابلی عند سكان آسيا الصغرى القدماء. يحتفل بعيده فی الربيع، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة. وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قرباناً دلالة على الخصب. (شاكرالسياب، ٢٠٠٠م، ج١: ٤٣٤)

بدر الذاتی

کان بدر فی المرحلة الأخیرة من حیاته فقیراً ومحزناً. ولقد واجه قدره وأصبح یدافع عن مجرد بقائه. الموت لم یعد جولة ولاحُبّاً ولافداءً ... وأصبحت الحیاة فی نظره موتاً فحسب. کما یقول:

«أهکذا السنون تذهبُ؟

أهکذا الحیاة تنضبُ؟

أحسّ أننی أذوبُ، أتعبُ،

أموت کالشّجر.»

(المصدرنفسه: ۱۴۸)

الأساطیر فی شعر السیاب

أ. أسطورة عشتار

عشتار[1] هی إلهة الخصب أو الأمّ الأسطوری وهی عاشقة لتموز، الأسطورة البابلیة التی تعتبر رمزاً لإعادة الحیاة إلی الأرض. یتحدث الشاعر عن هذه الأسطورة فی إحدی قصائده تحت عنوان «أنشودة المطر» حیث یقول:

«عیناک غابتا نخیل ساعة السَحَر،

أو شُرفتا راح ینأی عنهما القمر

عیناک حین تبسمان تورق الکروم

وترقص الأضواء ... کالأقمار فی نهَر

یرجّه المجذاف وهناً ساعة السَّحَر

کأنّما تنبض فی غوریهما، النّجوم ...»

(المصدر نفسه: ۴۷۴)

۱. ایشـــتار أو عیشـــتر: Ishtar، وأمّا فی ســـوریة وفلســـطین فتذهب هذه الکلمة: عســـترته Astarte وعشتروت Ashtarath.(ساندرز، ۱۳۸۷ش: ۲۵۵)

لم يذكر الشاعر فيها اسم الإلهة مباشرة ولكن الصفات المذكورة هى الصفات التى تختصّ بهذه الإلهة. يبدو فى بداية الأمر أنّ الشاعر يصف حبيبته وعشيقته عندما يذكر هذه الأوصاف الظاهرية ولكنّه عندما يتقدم فى وصفه يفهم القارئ بأنه يتحدّث عن أسطورة عشتار فى قالب الحبيبة، لأنّ خصائص هذه السيدة الأسطورية هى إعادة الانتعاش والخصب إلى الأرض ونرى «الانبعاث الأسطورى فى القصيدة عندما تبتسم إلهة الخصب. حيث يقول: عيناک حين تبسمان تورق الكروم.» (حلاوى، ۱۹۹۴م: ۴۶) وكأنّ هذه الأسطورة هى وطن الشاعر والشاعر يريد إعادة الخصب والحياة إلى وطنه.

بـ أسطورة سربروس

«سربروس هو الأسطورة اليونانية. وهو الكلب الذى يحرس مملكة الموت فى الأساطير اليونانية، حيث يقوم عرش «برسفون[۱]» آلهة الربيع بعد أن اختطفها إله الموت وقد صَوَّره دانتى[۲] فى الكوميديا الإلهية، حارساً ومعذبا للأرواح الخاطئة.» (داود، ۱۹۹۲م: ۲۸۸)

وأما بدر شاكر السياب فيشير إلى هذه الأسطورة فى قصيدته سربروس فى بابل ويقول:

«لِيعو، سَربروس فى الدروب
فى بابل الحزينةِ المهدّمه
ويملأ الفضاء زمزمه،
يمزِّقُ الصِغارَ بالنيوب، يقضمُ العظام
ويشرب القلوب...»
(شاكرالسياب، ۲۰۰۰م، ج۱: ۴۸۲)

۱. پرسفونى Persephone: فى الميثولوجيا اليونانية، إبنة كبيرة لإلهة زيوس Zeus. اختطفها پلوتو وحملها إلى العالم السفلى. (البعلبكى، ۱۹۹۲م: ۹۹)
۲. Dante (۱۲۶۵م–۱۳۲۱م) كبير شعراء ايطاليا وأهم آثاره «الكوميديا الإلهية» وهى ملحمة يدور موضوعها حول رحلة خيالية. (المصدر نفسه: ۱۸۵)

فى الحقيقة يشير بدر هنا إلى حاكم العراق. سربروس هو حاكم مدينة الشاعر وبابل هنا رمز للعراق. تُعدّ أسطورة سربروس رمزا للفقر والفناء والغوغائية التى تنشر الدمار فى العراق، بلاد الشاعر، بحيث يشير إلى الكلب الذى يحرس مملكة الموت، كأن الربيع والحياة مقصوران على يد هذا الكلب. ينتظر الشاعر فى هذه القصيدة المعجزة أو الحركة التى تقوم بنجاة بلاده من الموت والفناء ثم يشير غير مباشرة إلى الأسطورة اليونانية «برسفون» إله الربيع وهى التى تنجّى العالم من الموت.

ج. أسطورة السندباد أو ديسيوس

تعتبر أسطورة السندباد رمزا لمن رحل من دياره ويتمّنى العودة بالانتعاش والحياة والأمل. يستخدم الشاعر هذه الأسطورة فى قصيدة تحت عنوان مدينة السندباد ويقول فيها:

«جوعان فى القبر بلاغذاء
عريان فى الثلج بلارداء
صرختُ فى الشتاء:
أقضّ يا مَطر
مضاجع العظام والثلوج والهباء
مضاجع الحَجَر،
وأنبتِ البذورَ لتفتّح الزهر
وأحرقِ البيادِرَ العقيمَ بالبروق.»
(المصدرنفسه: ۴۶۳)

كأنّ الشاعر فى بداية أمره يقوم بوصف مدينة سندباد التى كانت تعانى من الفقر والمجاعة كما يأمر سندباد بالسفر حتى يحصل على مايتمنّاه بالدخول فى الأخطار ويعتقد بأنَّ المفروض على الإنسان أن يرحل الديار وأن يجتاز البحار. ثم يواصل كلامه ويخاطب سندباد ويقول له:

«يا سند باد أما تعود؟
كاد الشباب يزول، تنطفىء الزنابق فى الخدود
فمتى تعود؟»
(المصدرنفسه: ۲۳۱)

فعلى حسب رأى بدر شاكر السياب أسطورة سندباد هى رمز للذى رحل من دياره ويتمّنى العودة بالانتعاش والحياة والأمل.

د. أسطورة أورفيوس

ومن الأسماء الأسطورية التى استخدمها الشاعر فى هذه القصيدة هما: «ايكار[۱]» و«أورفيوس» وقد ذكر الشاعر فى حديثه الأوّل عن شُبّاک وفيقة وهى رفيقته. حيث يقول:

«ايكار يمسّح بالشمس
ريشاتِ النسر وينطلق،
إيكار تُلقّفه الأفق
ورماه إلى اللُجج الرمس»
(المصدر نفسه: ۱۱۷)

وتبدو الصورة بعيدة الصلة بما حولها إلا أن شباک وفيقة هو نفسه ايكار وأنه قد نأى عن الأعين المنتظرة ثم سقط فوارته اللجج أى ضاع من دنياه إلى الأبد وأما أورفيوس فإنه يمثله لأنه شق طريقه بالحنين والغناء وفتح لأنغامه مغالق الفناء. السياب وقف عند دار جده فى جيکور فرأى عالم الفناء نفسه مع أنه ظلّ طوال حياته يمنح جيكور الضياء وليكسوها الرواء بشعره.

هـ. أسطورة تموز

إنّ قصيدة «أنشودة المطر» كانت فاتحة عهد جديد من الاتكاء على رمز «تموز»

۱. ايكار ابن ديدالوس، جنح نفسه هو وأبوه بأجنحة من شمع وطارا من تيه مينوس فى كريت، ولكن ايكار اقترب كثيراً من الشمس فذاب جناحاه وسقط فى البحر ومات غريقاً. (عباس، ۱۹۷۸م: ۳۷۶)

أو «أدونيس»، إذ إن القصيدة لاتعدو أن تكون فى سياقها ترجمة لتلك الأسطورة دون تصريح برمز الخصب. كان لبدر شاكر نوع من الإحجام عن استعمال هذه الأسطورة» (عباس،١٩٧٨م: ٣٠٣). كما وصلنا إلى هذه النتيجة فى الصفحات السالفة أنه يشير إلى بعض خصائص أسطورة تموز كمقدمة ثم يذكر اسمها بصراحة و وضوح. وبعض الأحيان يشير إلى بعث الأمّة وتحرير بلده العراق. فجيكور بعض الأحيان هو تموّز أو رمز للاخضرار أو رمز للحياة. كما يقول:

«وجيكور خضراء
مسّ الأصيل
ذرى النخل فيها
بشمس حزينه.
ودربى إليها كومض البروق،
بدا و اختفى ثم عاد الضياء
فأذكاه حتى أنار المدينه»
(شاكرالسياب، ٢٠٠٠م، ج١: ٤١٨)

ومن خلالها يشير إلى بعض صفات أسطورة «تموز» كما يشير إلى قصة موت تموز على يد الخنزير البرّى حينما يقول فى بداية القصيدة:

«ناب الخنزير يشقّ يدى
ويغوص لظاه إلى كبدى ... »
(المصدرنفسه: ٤١٠)

ثم يواصل كلامه ويقول:
النَور سيورق والنُور.
جيكور ستولد من جُرحى،
من غصّة موتى، من نارى،
سيفيض البيدرُ بالقمح ...»

(المصدرنفسه: ٤١١)

و. المسيح وتمّوز

ينظر بدر شاكر السياب إلى «المسيح» و«تموز» كأسطورتين مقتولتين تمنحان الوعى والحياة للناس بعد موتهما. كأن المسيح يبدو صورة أخرى من تموّز الذى يقتل فيبعث. وتُعتبر قصيدة «المسيح بعد الصلب» هى إحدى قصائده التى تجسّد هذا القبول بالتضحية بل هذا الإيمان بالبعث من خلال التضحية حيث يقول:

«متّ كى يؤكلُ الخبزُ باسمى،
لِكى يزرعونى مع الموسم،
كم حياة سأحيا: ففى كلّ حفرة
صرتُ مستقبلا، صرتُ بذرة،
صرت جيلا من الناس: ففى كل قلب دمى
قطرة منه أو بعض قطرة»

(المصدرنفسه: ٤٥٩)

ز. أدونيس أو تموز

إنّ أدونيس أو تموّز عند السياب هو إله الخير ولكنّه عندما أصيب باليأس من الظروف السائدة على مجتمعه يخاطب أدونيس ويقول:

«أهذا أدونيس، هذا الحوّاء؟
وهذا الشحوبُ، وهذا الجفاف؟
أهذا أدونيس؟ أين الضياء؟
وأين القطاف؟»

(المصدرنفسه: ٤٦٥ و٤٦٦)

كأن الخيبة قد سيطرت على الشاعر إلى حدّ لايرى الخصب والحياة إلا سراباً. ثم

يشير إلى قتل تموّز على يد الخنزير البرّى حيث يقول:

«تموّز يموت على الأفق

وتغور دماه مع الشفق»

(المصدر نفسه: ٣٢٨)

النتيجة

توصّلنا خلال هذا المقال إلى النتائج التالية:

كان يعانى بدر شاكر السياب من الآلام الروحية وذلك بسبب فقدان أمّه فى السادسة من عمره. فقد لجاء إلى نساء كثيرات تعويضاً لهذا الحرمان دونَ أن يفوز فى هذا اللجوء. إنه كان متأثراً من الأدباء الغربيين من أمثال شكسبير، مِلتون، وت.س.اليوت. وفى هذه المرحلة تعرّف أكثر من قبل على مفهومى «الموت» و«الحياة».

استفاد من الأساطير لبيان أحاسيسه الداخلية ومشاكله الخارجية. ومهما نقرأ قصائد هذا الشاعر المبدع المتجدّد نتعرف عليه أكثر من قبل و نطّلع على همومه وآلامه وقلقاته وعلى كلّ ماجعله أن يكون مختلفا من الشعراء الآخرين دونَ أن يكون غافلاً عن أحوال مجتمعه قط.

إنّه قال الشعر ليكون قلمه سلاحه طوال حياته. وقد كان بحكم موقعه الزمنى، شديد البحث عن الرمز وكانت حاجته إلى الرمز قوية بسبب نشوئه فى أزمات وتقلبّات نفسية وجسمية وبسبب التغييرات العنيفة فى المسرح السياسى بالعراق حينذاک. ولهذا يصلح أن يكون نموذجاً للشاعر الذى يطلب الرمز فى قلق ومن يبحث عن مُهدّئ لأعصابه المستوفزة.

وفى كيفية استخدامه الأساطيرَ تجدر الإشارة إلى أنه استخدمها بطريقتين:

الأولى: الإشارة العابرة أو الإشارة إلى بعض خصائص تلك الأسطورة دون أن يشير إلى الأسطورة نفسها.

الثانية: الإشارة المباشرة بالأساطير حيث يذكر اسم الأسطورة وذلک كما أسلفناها.

المصادر والمراجع

بطرس، انطونيوس. لاتا. *بدر شاكر السياب*، شاعر الوجع. لانا.

البعلبكي، منير.١٩٩٢م. *معجم أعلام المورد*. بيروت: دارالعلم للملائين.

حلاوی، يوسف. ١٩٩۴م. *الأسطورة فی الشعر العربی المعاصر*. بيروت: دار الآداب.

داود، أنس. ١٩٩٢م. *الأسطورة فی الشعرالعربی الحديث*. بيروت: دارالمعارف.

ساندرز، ن.ک. ١٣٧٨ش. *بهشت ودوزخ در اساطير بين النهرين*. تهران: انتشارات کاروان.

شاكرالسياب، بدر. ٢٠٠٠م. *الأعمال الشعرية الكاملة*. بيروت: دارالعودة.

عباس، إحسان. ١٩٧٨م. *اتجاهات الشعر العربی المعاصر*. الكويت: مجموعة العالم المعرفة.

عباس، إحسان. ١٩٧٨م. *بدرشاكرالسياب، دراسة فی حياته وشعره*. بيروت: دارالثقافة.